مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189

مجلد: 11 عدد02 ديسمبر2020
العنوان: الرحلة السفارية عند علماء مملكة غرناطة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15 م).
ص.ص.

الرحلة السفارية عند علماء مملكة غرناطة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15 م).

د. رشيد يماني
قسم التاريخ، جامعة تلمسان
rachyd77@yahoo.fr

The diplomacy trips at the Andalusian scholars in the Nasrid Kingdom of Granada.

Abstract: This study searches the important types of trips in the history of Maghreb and Andalus in the Middle Islamic era, the diplomacy trips were unique in its political impact, and its impact on all areas of cultural, economic and social life

However, many scholars attached themselves to the power of the authorities and brought them closer to them. Most of them were directed in one way or another towards the fate of the Andalusian nation, but in turn their pens were unable to provide important information about their diplomatic life.

Keywords: Embassy; Granada kingdom; Scholars; Diplomacy; Conventions; poetry; Jews; scientific famillies.

الملخص:

تعددت أنواع الرحلات في تاريخ الأندلس في العصر الإسلامي الوسيط، وتباينت خصائصها وأهدافها، وتماثلت أطرها العامة بينما انفردت الرحلة السفارية بتأثيراتها السياسية ونتائجها المؤثرة في جميع مجالات الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لما لها من تأثير على مصيرها، وكان تعلق عديد العلماء بأذيال السلطة وتقربهم منها قد جعل من أغلبهم موجهين بشكل أو بآخر لمصير الأمة الأندلسية مشتغلين بعدة مهام سياسية؛ لكن في المقابل شحت أقلامهم عن إيراد معلومات مهمة عن حياتهم ورحلاتهم.

الكلمات المفتاحية: السفارات؛ بنو نصر؛ العلماء؛ الروابط السياسية؛ الاتفاقيات؛ الشعر؛ اليهود؛ البيوتات.

مقدمة:

تعد الرحلة السفارية من أهم أنواع الرحلات التي تميز وانفرد بها أعلام ونُخب الأندلس على عهد مملكة غرناطة، وذلك من خلال الخصائص التي تميز بها هذا الصنف من الرحلات؛ بحيث تضرب لنا المصادر المغربية والأندلسية عموما بعض النماذج التي بينت القوة السياسية لعلماء البيوتات على اختلافهم الإثني والجغرافي في اصطلاح الأحداث أو طلب الإغاثة؛ وكثيرا ما كانت في شاكلة منظومة شعرية أو رسالة نثرية ديوانية.

وفي المقابل كثيرا ما نجد سكوت معظم المصادر وحتى بعض الوثائق الأرشيفية عن فحوى هذه الرحلات السفارية والوفادة الديبلوماسية؛ ويبقى المصدر الوحيد الذي لم يكن شحيحا في معلوماته عن العلاقات السياسية بين الأندلس والمغرب هو كناسة الدكان والذي تضمن بعض السفارات وأطرافها وحتى مضمونها.

وبالرغم من شح الكتابات التاريخية عن السفارات الأندلسية إلا أننا آثرنا التنويه بالموضوع والإحاطة بجوانبه كالمظاهر والعوامل المتحكمة في السفارات وتحديد شروط السفارة وأطرافها ومن ثم الوقوف على نماذج معينة للنخب والعلماء الوافدين في رحلة سفارية، اعتمادا على جملة من المصادر التاريخية خاصة منها كتب التراجم والرحلات والمصادر الأرشيفية خاصة منها الإسبانية.

السفارة عند علماء الأندلس.

قبل الحديث عن موضوع السفارات بنماذجها الأندلسية وملامحها العامة ومُميزاتها، علينا أن نعرج على واقع السفارة بشكل عام ومفهومها في العالم الإسلامي في الفترة الوسيطة.

كثيرا ما نلحظ ونسمع عمن يقوم بمهمة المبعوث الديبلوماسي عند العرب الذي تسميه سفيرا أو رسولا أو مستأمنا، وفي المقابل أطلقت

تسمية الوفد والوفادة والبعثة والرسل والسفارة على البعثة الديبلوماسية.

انتهج المسلمون خطى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في معاملة السفير وإكرامه واحترامه بعدم لمس أمتعته ووثائقه وإعفائه من الضرائب والمكوس وعدم تطبيق بعض الحدود عليه، مع حسن استقباله وإنزاله منزلة الاحترام. (الرويفي، م .1965: 45).

إن مصدر كلمة السفارة **لغة** هو الفعل سَفَر يَسفِر بكسر الفاء، وسفارة بالكسر أي أصلح، والسفير بين القوم من قام بينهم بالصلح (الرازي، م .2005:154) وأما الرسول الذي يصلح بين قومين فهو السفير، وعندما يقال سفر بين القوم سفارة إذا أصلح بينهم. وتجمع كلمة سفير على جمع سفراء، والسفارة عمل السفير ومقامه. (ابن دريد، أ. 1987: 717)

أمكن لنا أن نصل إلى تحديد المفهوم **اصطلاحا** بحيث هو العمل الذي يقوم به السفير من وفاق أو إصلاح بين طرفين بعد إزالة أسباب الاختلاف، وإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح أو إدامتها وتطويرها. (محمد آل مصطفى، إ. 2013: 40).

أطنبت العديد من الدراسات العربية والاستشراقية وخاصة المستعربة (Damaj A. , Garcia lujan J. A., 2012- Castaner , J.E.L. ferrer mallol, M. t. , 2004- 2004 :339- Molina , J.R.1990: 312 -Delagado , C.T.1979 :203.) منها في Salicru i lluch, R.2007 :77 الحديث عن الروابط السياسية والاقتصادية بين الأندلس الإسلامية وبقية الدول المجاورة وحتى البعيدة منها التي تربطها أواصر التواشج الثقافي والعقدي، وعلى وجه الخصوص السفارات بالأندلس التي كثيرا ما حملَ علمُها أعلاماً ووزراءَ وتجاراً وحتى مجهولين؛ مع الإحاطة بفنها وخصوصياتها.

لكن وفي المقابل يعد موضوع السفارات الأندلسية من أهم المحاور التي هي بحاجة إلى مزيد من الاستقراء واستنطاق وثائقها وتتبع مادتها لما تحتوي من أهمية حول الواقع الأندلسي، حيث أنتج

هذا اللون ضروبا في فنون العلم المتعلقة به كأدب الرحلات، ولغة الكتابة السفرية، ودهاء الوزراء ومهامهم ودهائهم وحنكتهم السياسية، وعلاقة العالم الإسلامي بالعالم المسيحي، وعلاقة العالم والمثقف بالسلطة بين الاقتراب والاغتراب، إضافة إلى رسم الواقع السياسي والاقتصادي للدولة ومحيطها، فضلا عن إعطاء صورة واضحة ونطاق أوسع عن المعلومات الجغرافية. (كراتشوفسكي يوليانوفيتش، أ.1963: 191).

العوامل المتحكمة في السفارات:

إن الحديث عن موضوع السفارات الأندلسية وبالأخص سفارات الأعلام يجرنا للإحاطة بعوامل أخرى مؤثرة ولها علاقة وثيقة بظاهرة رحلات العلماء السياسية، ولعل أهمها:

أ- علاقة النخب بالسلطة: بين الجفاء والحضور.

من نافلة القول إنه يمكن الوقوف على العلاقة القائمة بين العالم والسلطة بتقسيم الفئة المثقفة إلى ثلاث فئات: فئة تتقرب إلى السلطة لحاجة أو طموح أو متطلبات مهنية وتستطع أن تقتلع من يقف في طريقها من خلال الدسائس، وفئة محايدة ومعتدلة لا تتعامل مع السلطة إلاَ لضرورة قصوى ولا تعاديها إلا إذا اشتد جورها أو انحرافها، وفئة أخيرة معادية ومجافية للسلطة مبدئا وموقفا كثيرا ما يؤول مصيرها إلى هلاك أو إلى نكبات من خلال ما يُحاك ضدها. (حركات، إ. 2000: 73).

توجد عوامل كثيرة تدفع بالعلماء للدخول في غمار الاحتكاك بالسلطة وإبداء المواقف المصيرية مكرهة؛ ولعل أهم هذه العوامل: التكوين والمركز الاجتماعي للعلماء، موقف السلطة من المالكية واستغلالها الأفكار الدينية في التأثيرات السياسية، ومساندة بيعة الحاكم، إضافة إلى دور القادة السياسيين والعسكريين وحتى والصلحاء واستخدامهم كقوة اجتماعية ذات وزن يقومون بدور الوساطة بين الهرم (السلطة) والقاعدة (العامة)..

وفي المقابل فإن السلطة تحتاج إلى المثقفين والعلماء من ذوي البيوتات حيث أننا كثيرا ما عثرنا على مفردات في تراجمهم مثل

استخدم، استعمل، تولى (ابن الأحمر، إ. 1968 :277- ابن الخطيب، م .1973: 143/2، 239/3 – 245/3)؛ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حاجة السلطة للمثقف كوسيط لدى الرأي العام، أو كتقوية سياسية، وكهيأة لا مناص من الاستعانة بها في عدد من أجهزة الدولة ومرافقها الإدارية والدينية والعلمية، وحتى في مهامها السياسية أي في السفارات.

ب-الظروف السياسية والأمنية المحيطة بالأندلس خلال هذه الفترة:

لعل تسارع وتيرة حركة الاسترداد الإسباني، وتفشي ظاهرة القرصنة البحرية في حوض البحر المتوسط الغربي وتأثيرها على التجارة ونشاط موانئ الأندلس الرئيسية، إضافة إلى قضية الأسرى المحتجزين عند الحدود بين طرفي المملكة الإسلامية بغرناطة والممالك النصرانية شمالا وغربا وشرقا أثر في تأزم العلاقات السياسية بينهما. (Arié, R. 1990 :272)

ج- ظاهرة اللجوء السياسي:

ويقصد بها كل نزوح اضطراري بسبب المشاركة في التحريض على السلطة القائمة أو الشغب عليها، أو خشية فتنة السلطان لبادرة غضب أو لرغبة السلطان في إبعاد مجموعة يمكن أن تثور في أي مناسبة (ابن الأحمر، إ. 1968 :40) ولعل الشواهد الماثلة من كل دويلات المغرب وحواضره وبخاصة مدن الأندلس بل وحتى الدول النصرانية كقشتالة وأراغون شاركت في ذلك لجوءً وإيواءً.

كثيرا ما كان مصير هذا اللجوء من طرف العلماء أو الأعيان إلى بلد مجاور طلب الشفاعة منهم حيث ينتهي بإرسال وفد بهدف استرجاع هؤلاء النخب، وفي المقابل عملت السلطة المستقبلة للاجئين على العمل بكل الطرق للاحتفاظ بهم نهائيا والاستفادة منهم وسد الثغرات في الإطارات.

لم تكن ظاهرة اللجوء السياسي جديدة على أعلام المغرب والأندلس خلال القرن الثامن الهجري (14م) شأنها في ذلك شأن

ظاهرة الاغتيالات السياسية ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية والأمنية وحتى العقدية المحيطة.

د - نكبات ومِحن العلماء: شهد أعلام الأندلس موجة من المحن التي كثيرا ما أطنبت المصادر في إيرادها، ويمكن تقسيمها إلى محن الفكر والعقيدة، ونكبات المؤامرات والدسائس السياسية.

حِيكت المؤامرات والدسائس ضد كبار علماء الأندلس بحجة عقدية وفكرية فيكون التأليف أو الموقف الفكري أحد أسبابها؛ وبالتالي تُحاكم النُخب وتجري ضدهم التهم، وقد تورط بعضهم في مؤامرات حقيقية إما لبُغضهم للعاهل القائم أو لنظامه أصلا. (حركات، إ. 2000: 82).

وبالتالي فإن غرض السفارة نحو هؤلاء الأعلام المتعرضين للمحن والنكبات والفارين خارج الأندلس له أهداف سياسية محضة تخص استمرارية السلطة القائمة. وخلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (15/14 م) تزايدت حالات هجرة المثقفين من الأندلس نحو العدوة المغربية أو العكس؛ وكثيرا ما كانت تنتهي هذه النكبات بطلب الشفاعة عند الحاكم يكون ممثلها أحد العلماء أيضا في مهمة السفارة. (ابن الخطيب، م. د-ت: 153)

هـ - تقلد المناصب العليا: كان تعيين الوزير أو الكاتب من فئة الأعلام خاصة إذا كان بيته من الأسر المعروفة، وكثيرا ما جمع بين الخطتين فينعت بذي الوزارتين شأن الوزير الشاعر والعالم الموسوعي لسان الدين بن الخطيب.

إن ما يُميز منصب الوزير في مملكة غرناطة هو إدراكه لما يجري حوله من تغيرات سياسية واقتصادية، لذلك فهو مكلف بالمهام السياسية حتى خارج حدود مملكته (فرحات، ي ،1993: 64 , Casciaro - J. m. 1947,233-258) حيث يستقبل السفارات ويقوم ببعث الوفود لتمثيل سلاطينهم في مهمات سياسية كعقد هدنة أو معاهدة صلح، أو تجديدها أو شفاعة وتسريح أسرى وغيرها، وعادة إن لم يكن هذا

الوزير هو الممثل فإنه يصطفي من أخيار العلماء لهذا الغرض فتكون رحلته سياسية محضة.

قد يكون للقطرية تأثير في ذلك من خلال تحديد جنسية العالم آنذاك حيث لا يمكننا أن نحكم على ابن خلدون أنه حفصي أو زياني أو حتى مريني في حين أنه قدم إلى غرناطة بطلب من السلطان النصري واستقبله ابن الخطيب، ومن ثم أُوكلت له مهمة سياسية وسفارة إلى موطن أسلافه فى اشبيلية التى كانت قد سقطت في يد النصارى (Cheddadi, A. 1983: p5-23)وأضحى بذلك يمثل قطرا آخر وهو الأندلس.

هناك **عوامل أخرى** لا يمكن اعتبارها ثانوية حيث أنها مهمة بل وتعد أحيانا أسس في قيام السفارة لعل أبرزها **الهدايا** المقدمة والمتمثلة غالبا في أمور نفيسة (سالم عطية، آ .2011: 71)، بينما كان **لليهود** كذلك باع في شأن هذه السفارات من خلال تمكنهم من الترجمة ومكانتهم السياسية والتجارية وتقربهم من الحكام. (بوعمامة، ف .2011: 233)

آلية اختيار السفير ومواصفاته في غرناطة النصرية:

إذا كانت إحاطتنا بالعوامل المؤثرة في المهمات السياسية ضروريا؛ فإن الوقوف على شروط السفارة والمهمة المنوط بها يعد أمرا حتميا ومهما، ولعل من أهم مواصفات السفير وأولها كان تمكنه من العلوم، لذا استأثرت كل المهمات السياسية والرحلات السفارية بوجود العلماء على رأسها، وقلما نجد أشخاصا آخرين من فئات أخرى كالتجار واليهود.

كان تصنيفنا لشرط العلم في الريادة نظرا لتأثيره في بقية المواصفات فسِمة العلم تبرز جليا في خطابة السفير وفصاحته، وهي أمر هام أكده ابن رضوان صاحب الشهب اللمعة بقوله: "ذا بيان وعبارة بصير بمصادر الكلام وأجوبته مؤديا لألفاظ الملك ومعانيه صادق اللجة ". (ابن رضوان المالقي،ع. 1984: 346).

وأما بقية المواصفات والتي يمكن إيجازها في الأخلاق والنزاهة وذلك باختيار ذوي الصدق والأمانة ، (أبو حمو الثاني ،م .2011: 186)،

ثم الذكاء والكياسة من خلال الإحاطة بما يجري حوله من تحولات سياسية فيُدرك متى يضغط ومتى يطلب الهدنة، إضافة إلى طريقة أداء هذه المهمة في البلاطات الأجنبية من خلال التحكم في اللغة وطريقة التقديم التي قد تكون نثرية في شكل رسالة ديوانية تملأها السجع والعبارات المادحة، أو في شكل منظومة شعرية يتقن الشاعر السفير قافيتها ويطنب في مدح الحاكم الواقف أمامه؛ فكثيرا ما كانت تُنعت هذه القصائد بقافيتها واشتهرت بذلك مثل الرائية والتائية.

استخدم أعلام من غير المسلمين في أداء مثل هذه المهمات في بلاطات الممالك النصرانيةوكانوا خاصة من فئة المولدين، أومن أهل الذمة الذين يتقنون اللغات كالعربية ثم القشتالية والأراغونية أفرادا وأسرا شأن ابن بكلارش وبني النغريلة وبني حسداي وابن زرزر وسمؤيل بن جلال وبندافي، وشمعون البلنسي (بوعمامة، ف .2011: 233-234).

نبغ في السياسة من بيت بني الوقار الغرناطيين -وهو من أشهر البيوتات اليهودية- يوسف ابن الوقار الطليطلي أبرز أبنائها قريبين من السلطان النصري والسلالة الحاكمة؛ ومستشارا أولا ووزيرا يستقبل السفراء (Arié , R. 1990:444)

هذا لا يعني أن كل البعثات والسفارات إلى ملوك قشتالة وأراغون كان يقودها أطراف يهودية أو من المولدين المتقنين للغات أجدادهم، بل وجدت مهمات لعلماء عرب قد لا يتقنون تلك اللغات إلا أنه وجد معهم حتما ضمن وفودهم من يتقن الترجمة؛ لكن كتب التراجم والتاريخ لم تتحفنا بهؤلاء.

ومن جانب آخر وبِقراءة متأنية أمكن لنا أن نقف على نماذج من أعلام الأندلس الذين أتقنوا مثل هذه اللغات شأن الرقوطي والبرشاني والسهيلي وابن خروف (ابن الخطيب، م .1973: 67/3. 482/2. ابن عسكر المالقي ، م .1999 :252. 313)

ماجت المصادر التاريخية بذكر مثل هذه المراسلات التي لم تكن بين الأمراء والملوك فحسب بل حتى بين وزراء غرناطة وأعيانها

والتي أكدت في مواضيعها تعميق الأخوة بين الأطراف، كما قد يكون مرسلها من غير الحكام بل من نسائهم (ابن الحاج النميري، إ. 1990: 102(44:1911 -.Gaspar Romero ,M-) شأن ما وقع مع عائشة الحرة حين وقع ابنها محمد أبو عبد الله أسيرا عند ملك قشتالة في قلعة ليانة سنة 888هـ.

ومن جانب آخر وجُدت قاعات خاصة لاستقبال السفراء في دول المغرب الإسلامي، ولعل بني الأحمر كثيرا ما كانوا يستعملون قاعة قمارش ذات السمعة الطيبة والقيمة الجمالية .Gaspar Romero, M) (4-3:1911 لاستقبال البعثات والوفود والاستماع إلى فحوى رسالات ملوكهم وأمرائهم.

نماذج عن السفارات الأندلسية:

تعد الرحلة السفارية من أهم أنواع الرحلات التي نبغ في أدائها علماء الأندلس ومن ورائهم أهل البيوتات العلمية الأندلسية، وذلك من خلال الخصائص التي تميزت بها هذا الصنف من الرحلات؛ والذي يأتي في المرتبة الثالثة بعد الرحلة الحجية والعلمية بحيث تضرب لنا المصادر المغربية والأندلسية عموما بعض النماذج التي بينت القوة والحنكة السياسية لعلماء مملكة غرناطة في اصطلاح الأحداث وتصفية الأجواء أو طلب الإغاثة؛ وكثيرا ما كانت في شاكلة منظومة شعرية أو رسالة نثرية ديوانية.

يعترض البحث في هذا اللون عدة صعوبات وعقبات تعيق التعمق في معرفة ملامح هذه السفارات وفحواها الحقيقي، ولعل أهمها غياب الوثائق الرسمية التي وقعت بين الطرفين أو شُحها إذا ناذرا ما نجد شرخا كبيرا في متن هذه الاتفاقيات الموقعة بين الطرفين، ومن جانب آخر عملت الدراسات الاستعرابية على إبراز بعضها بنصها العربي وترجمتها القشتالية.(Gaspar Romero ,M. 1911:5, 13,44,51)

لم تسعفنا المصادر العربية المعاصرة وحتى اللاحقة بفحوى هذه الاتفاقيات سواء كانت مصادر عامة كنبدة العصر، أو تاريخ ابن خلدون، أو مصادر متخصصة مثل كناسة الدكان إذ اكتفى ابن الخطيب فقط بإيراد الرسائل المكتوبة دون الحديث عن مضمون

المهمة الحقيقية إلا أنه يقربنا إلى معرفة الأحوال السياسية في الأندلس ومحيطها.

من أكثر السفارات الأندلسية شهرة قبل فترة بني الأحمر تلك التي قام بها يحي الغزال بن الحكم الجياني البكري المتوفى سنة 256هـ/870م (المقري التلمساني، أ.1968: 252/2) الذي تمكن من أن يكسب مكانة في هذا الصنف بفضل سفارته الناجحة وحضوره البارز في البلاط النورماندي في مدينة القسطنطينية. (ابن دحية الكلبي، ع. 1955: 133) إضافة إلى رحلة ابن الآبار القضاعي في القرن السادس الهجري(12م) عند ملوك بني حفص عندما قرأ سينيته المشهورة. (المقري التلمساني، أ. 1968: 4/ 457). وإذا كان ابن الآبار قد اشتهر في رحلته السفارية في المغرب الأدنى عند أمراء بني حفص بسينيته فإن عددا من أبناء البيوتات العلمية الأندلسية قد برزوا في السفارات والوفادة السياسية في المغرب الأقصى على عهد المرينيين.

ولم تشمل هذه السفارات بلاد الإسلام فقط بل وجدت رحلات سفارية نحو بلاد النصارى في شبه الجزيرة الإيبيرية منها رحلة ابن كماشة سنة783هـ/ 1382م وكانت قد سبقتها سفارة القائد العسكري ابن كماشة وهو من أهل بيته سنة744هـ/ 1344م نحو ملك أراغون لتجديد معاهدة الصلح.

يعد ابن الحاج أبو عبد الله من العلماء المتمكنين وهو من بيت بني الحاج الاشبيلي من البيوتات المُدجنة ويعد أشهر أعلامه أبو عبد الله محمد بن علي بن الحاج محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ويعرف بابن الحاج (ت714هـ/1314م) (ابن الخطيب، م. 1973: 139/2)، وكان والده يحترف النجارة بمدينة إشبيلية بعد سقوطها في يد الإسبان؛ وبالتالي يكون هذا البيت من مدجنى اشبيلية وقد نزحت هذه الأسرة بعد مقتل الوالد نحو غرناطة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري(13م).

كان ابن الحاج متمكنا في علوم عدة خاصة منها التعاليم حيث استغل ملوك بني نصر ومنهم أبي الجيوش نصر معرفته بالحيل الهندسية وتفوقه باتخاذ الآلات الحربية فاتخذه تقنيا وأجرى عليه راتبا في ذلك. وقد كان كذلك من العارفين بلسان الروم ويحسن لغتهم وتاريخهم، كما كان يعمل على تقليدهم في حياته الاجتماعية حتى نقم الناس عليه ذلك وحدثت له نكبة أنجاه منها سلطانه.

ولحظوته في البلاط النصري استخدم الشيخ أبو عبد الله الساحلي الولي (الساحلي المالقي، م. 2003: 17 - ابن الخطيب لسان الدين، م. د-ت، 115) في السفارة إلى بلاط فاس لإصلاح ذات البين وربط اتصال أهل الدولتين؛ وهي سفارة لا نعرف عنها الكثير عن تفاصيلها ولا تاريخها بالتحديد ويبدو أنها كانت قبل أن سنة 719هـ/1319م) (ابن الخطيب، م. 1973: 239/3 – ابن حجر العسقلاني، أ. 1993 :3 /322) كما برع يحي بن إبراهيم ابن زكريا الأنصاري الأوسي أبا عمرو (ابن الأحمر، إ. 1968 :277) في إنشاء الرسائل حيث تولى الكتابة بعد أن كان والده إبراهيم كاتبا للرئيس الأمير أبي سعيد فرج ثم توجه إلى الكتابة في الحضرة المرينية؛ وانطلاقا من هذا المكانة التي حضي بها في العدوتين فقد استعمل في أهم السفارات بين الأندلس النصرية والمغرب المريني .

اكتسب ابن رضوان النجاري من خلال تجربته في الكتابة السلطانية التي قاربت الأربعين سنة مشاهدا لشريط الأحداث السياسية ومتصلا بالوافدين من السفارات والشخصيات العلمية وكانت له مراسلات سلطانية مع ابن الخطيب ما بعد معركة طريف 741هـ/1340م حتى وفاته 783هـ/1381م، الأمر الذي مكنه من تأليف كتابه الشهير الشهب اللامعة في السياسة النافعة.

هذا وقد كسب ابن الخطيب ثقة سلاطينه أبو الحجاج يوسف ومن بعده الغنى بالله بعد نجاحه فى التمثيل السياسى خاصة بعد رحلتيه السفاريتين نحو ملك المغرب سنتي 749هـ/1348م و 755هـ/1354م على التوالي، وقد ظهرت أثر تلمذته على ابن الجياب في رسائله السلطانية التي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب والتي

نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب جمع بعضها في ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، بينما يضم كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان مجموعة من هذه السفارات والرسائل التي تمثل العلاقات السياسية بين المملكة النصرية والمغرب المريني خلال منتصف القرن الثامن الهجري(14م) .

ولعلنا نورد في هذا المنحى أنموذجا عن مضمون سفارته من خلال هذه الأبيات الشعرية (بحر المنسرح):

خَليفَةَ اللهِ ساعَدَ القَدَرُ عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ
ودافَعَتْ عنْكَ كفُّ قُدْرَتِهِ ما ليْسَ يسْتَطيعُ دَفْعهُ البَشَرُ
ليْسَ لَنا ملْجأٌ نؤمِّلُهُ سِواكَ أنتَ الثِّمال والوَزَرُ
والنّاسُ طُرّاً بأرْضٍ أندَلُس لوْلاكَ ما أوطَنوا ولا عمَروا

علق ابن الخطيب على سفارته بقوله:" وقد نجح السعي، وأشعر الجهد، وصدقت المخيلة." كما أنه ذكر لنا تاريخ ابتدائها ونهايتها حيث قال: "وكان دخولي عليه (أبي عنان) في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام خمسة وخمسين (وسبعمائة) وكان الوصول (إلى غرناطة) في وسط محرم عام ستة وخمسين وسبعمائة." (ابن الخطيب، م. 1973: 20/2)

كما انتدب السلطان أبو الحجاج يوسف الأول القاضي الخطيب والأستاذ أبا البركات محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلفيقي سفيرا إلى معاصريه من الملوك المسلمين بعد أن كون تجربته في مجالات الخطابة والقضاء في العديد من المدن الأندلسية ما بين سنتي 735هـ و747هـ/ما بين 1335و1346م. (ابن الخطيب، م. 1973: 143/2.النباهي، ع. 1983: 164)

ولعل أهم غرض سفاري استُخدِم فيه أبو البركات البلفيقي هو تلك الوفادة على السلطان المريني أبي عنان فارس في غرض الشفاعة لكاتبه وسفيره أبي عبد الله المقري، وقد شملت هذه السفارة إضافة إلى أبي البركات ابن الحاج قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني

السبتي، وانتهت هذه السفارة "مشافهين بالشفاعة لغرضه، فانقشعت الغمة، وتنفست الكربة "'. (المقري، أ. 1968: 134/7).

استوطن المقري مالقة وغرناطة وبقي بها مدة السنتين وكان السلطان المريني أبو عنان ساخطا عليه حتى وصفه بأوصاف شنيعة وكاتب بني نصر في شأنه حتى تلاحقت رسائله في طلبه فرد عليه ابن الخطيب نفسه كاتب الدولة النصرية برسالتين يستشفع فيهما لأبي عبد الله المقري وقد أشار فيهما إلى نزعة الزهد والتي حملته على إيثار العزلة ،وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب:" ...لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا في طور التقلل والتخفيف خالطا نفسه باللفيف قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضا عن الناس لا يظهر إلا للصلاة يشهد جماعتها ودعوة للعبادة يخاف إضاعتها " . (ابن الخطيب، م. 1973: 245/3.)

وأمكن لنا أن نختم بأنموذج أخير من بيت الطنجالي الهاشمي والذي مثله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي(ت724هـ/1324م) الذي استعمل هو الآخر في السفارة بين ملكي العدوة والأندلس في أحوال المسلمين. (ابن الخطيب، م. 1973: 245/3)

انكب الحاجب رضوان على طلب العلم مستغلا الظروف المواتية له في حرم البلاط حتى أضحى من العلماء الموسوعيين حيث كان مستظهرًا للتاريخ وذاكرًا للفقه والحديث وقادرا على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد وعارفًا للسياسة وأحوالها.

يقول عنه ابن الخطيب أنه كان أصيل الرأي، مكرمًا للعلماء وعلى أصالة من الدين حتى أن مكسبه كان من التجارة والفلاحة؛ ومن أهم إنجازاته فضلا عن المدرسة النصرية ومرافقها عمله على بناء الأبراج والتحصينات ومد شبكة الري إضافة إلى المشاركة في غزوات المملكة النصرية. (ابن الخطيب، م. 1973: 508/1).

ومن المهام السياسية التي قام بها أديبنا أبو القاسم الشريف الغرناطي(ت760هـ/1359م) سفارته إلى جهات متعددة من لدن ملوك

بني نصر إلى العدو الإسباني وإلى ملوك بني مرين بالمغرب، استعمل في السفارة إلى العدو ونجح في مسعاه، وكانت هذه الفترة من أشد الفترات السياسية على المسلمين بالأندلس، حيث فقدوا معظم الحواضر الأندلسية، كما نجده يقوم بسفارة إلى فاس للاتصال بملوك بني مرين الذين كان لهم بلاء حسن في الدفاع عن الثغور الإسلامية بالأندلس.

دخل مدينة فاس في قصد السفارة، إلا أنه لم يذكر لنا السنة التي دخل فيها إلى فاس والمهام السياسية التي حققها من تلك السفارة.

الخاتمة:

يلاحظ استئثار المغرب المريني بالمراسلات والوفادات من الأندلس مقارنة ببقية الأقطار نظرا للقرب الجغرافي والإمدادات المرينية ووجود مشيخة الغزاة بالعدوة الأندلسية، هذا إضافة إلى المشروع السياسي والحضاري الذي كان يطمح إليه السلاطين المرينيون، حيث كان المنهاج السياسي الذي كان أبو الحسن ينهجه يدعوه إلى أن يجعل من البلاط المريني مجمعا لأعلام الفكر ليستعين بهم في مشروعه الحضاري والوحدوي والزحف على المغربي الأوسط والأدنى.

اجتذبت الإغراءات الوظيفية أعداد كبيرة من النخب العلمية، حتى أن هذه الفئة بدأت تسعى للوظائف والترقيات سعيا؛ وأدى ذلك إلى استعمالها في المراسلات والسفارات السياسية من جهة، وفي المقابل أدت إلى بروز صراعات خفية وحتى علنية داخل البلاطات وبقربها، بين فئة المثقفين البارزين الذين لم يتردد كثير منهم في تبادل الدس والوقيعة إما مباشرة أو بواسطة شخصية كبيرة من ذوي النفوذ السياسي من الوزراء والحجاب، وبعض العلماء خاصة منهم الموسوعيين كثيرا ما يأتي الدس ضدهم بسبب مقدرتهم التي لا يبلغها السعاة بحقهم.

كما أن هؤلاء الأعلام سواء كانوا موسوعيين أو شعراء وفقهاء فقط، فُرادى أو من ذوي البيتية والفضل والنباهة، عربا أو من

المولدين ومن أهل الذمة، معروفون وحتى مجهولون، ملوكا وأمراء أو حتى نسوة البلاطات من أمهات وزوجات السلاطين فقد مثلوا بلدهم في المحافل الديبلوماسية.

جدول توضيحي لأهم سفارات الأعلام لمملكة بني نصر
(أنظر التعليق رقم 1)

العالم	الإطار العام للرحلة السفارية	خصائص المهمة ومضمونها	المصدر
ابن الحاج النميري.	-وجهته إلى بلاد المغرب. -عند السلطان المريني أبو عنان -سنة 758هـ.	- توطيد السلطان لسلطته. - القضاء على فتن الأعراب. - الرغبة في توفير الاستقرار. الرحلة كانت في كل بلاد المغرب: بلاد الزاب وقسنطينة. أعطت الرحلة فكرة عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في كل بلاد المغرب.	ابن الحاج النميري، إ، 1990 :20، 23.
لسان الدين ابن الخطيب ت.776هـ	وجود رحلتين سفاريتين: الرحلة الأولى سفارية رسمية من الغني بالله محمد بن يوسف. وجهته المغرب الأقصى. عند السلطان المريني ابي عنان. سنة 1354/755 م. الرحلة الثانية سفارية وشخصية السلطان المريني أبو سالم.	– توثيق العلاقة السياسية. – إخطار بني مرين بأحداث الأندلس بعد مقتل أبي الحجاج. – طلب العون لنصرة الأندلس ضد ملك قشتالة (ألفونس 11) – بعد مقتل الغني بالله وفراره – محنته وكربه بالمغرب. – سفارة أبو القاسم التلمساني إلى الأندلس للشفاعة.	ابن الخطيب، م ،1973: 77/3- 37/1. ابن الخطيب، م ،1347: 122-148. ابن خلدون، ع، 2000: 291/7 – 309/7. جنثاليث بلنسيا، آ، (د-ت): 253.
ابن زمرك	سفارية وعلمية عند السلطان المريني تسع رحلات سفارية	– مدح السلاطين. – استصراخ المغرب المريني لنجدة الأندلس.	ابن زمرك،م ،1997: ص162.

	اخرى اهمها سنة 793ه/ 1391 م عند ملك قشتالة هنري الثالث.	- فشل السفارة بسبب الأوضاع السياسية عند بني مرين.	ابن الخطيب، م ،1973: 197/2 عنان،1997: 162. فرحات، ي ،1993: 75.
ابو الحسن ابن كماشة	المهمة 1: من السلطان يوسف أبي الحجاج. إلى الفونس 4 ملك أراغون. 27 ذي القعدة 735هـ. المهمة 2: من السلطان أبي الحجاج يوسف. إلى بيدرو 4 ملك أراغون 4 ربيع الأول746هـ	تجديد معاهدة الصلح. نجاح في المهمة السفارية. معاهدة صلح وهدنة جديدة في البر والبحر لمدة 10 سنوات. تجديد الصلح وعدم الإغارة على سواحل المسلمين وإلحاق الضرر بها. استقامة الأحوال وتحسن المبادلات التجاري.	عنان، م، 1997: 30. Gaspar Romero,M. 1911:61،72 Torres F, J., (1961) ,25-29.
رضوان بن عبد الله الحاجب	من السلطان يوسف أبي الحجاج. رحلتين سفاريتين: 15 ذي الحجة 735هـ 4 ذي الحجة 736هـ إلى بيدرو 4 ملك أراغون	تسريح الأسرى نجاح في المهمة. تجديد معاهدة الصلح مع الملك الجديد	Gaspar Romero,M. 1911: -66، 135-128-92 عنان، م، 148:1997
أبو القاسم السبتي / أبو البركات البلفيقي	سنة 759هـ إلى السلطان المريني أبي عنان.	-الشفاعة للمقري الجد أبو عبد الله. - نجاح المهمة.	ابن الخطيب، م، د- ت: 159، 153، 160. المقري، أ، 1968: 5/ 210، 211.

ابن خلدون	مهمة سفارية. موطن اسلافه اشبيلية ملك قشتالة بيدرو الأول سنة 765 هـ	تكوين صداقة مع الامير بيار Pierre le cruel محاولة الحاقه مقابل رد ممتلكات أسلافه باشبيلية. اختار الرجوع الى غرناطة وقد استدعى عائلته من قسنطينة. تخوف إبن الخطيب من إبن خلدون.	ابن خلدون، ع، 1979: **82** - Cheddadi, A, 1983: - 523.
يوسف بن كماشة	من عائشة الحرة إلى فرناندو 5 ملك قشتالة سنة 890هـ/1485	الإفراج عن ابنها السلطان محمد ابو عبد الله الذي وقع أسيرا في موقعة ليسانة سنة 888هـ	عنان، م، 1997: 205 – فرحات، ي، 1993: 61.
مجهول	أبو عبد الله الأيسر محمد بن يوسف. القاهرة سنة 844 هـ. إلى الظاهر جقمق.	إخطار دولة المماليك بسقوط مدن الأندلس وتداعيتها طلب تقديم المساعدة للأندلسيين للدفاع عن أنفسهم. فشل السفارة لعدة عوامل.	عنان، م، 1997: 162. مجهول، م، 1404ه: 128. Seco de Lucena P, L.1955 : 6

التعليق رقم 1:

انطلاقا من هذا الجدول التوضيحي يبدو أن العلاقة بين العالم الأندلسي والسلطة النصرية كانت وطيدة، وقد غدتها عدة عوامل أهمها التكوين والمركز الاجتماعي الذي يُصنف فيه السفير فهو من فئة العلماء والفقهاء والقضاة والكتاب وحتى الوزراء والحجاب مما يجعلهم في سلم اجتماعي رفيع.

إضافة إلى مواقفهم من المالكية ومساندة أئمتها والوقوف في وجه الأفكار الخارجية والتيارات المذهبية الأخرى واستغلالها الأفكار الدينية في التأثيرات السياسية. ومُساندة بيعة الحاكم بشكل جماعي أو موزع بين طرفين وحتى أكثر وغالبا ما تكون في المؤسسات

العامة أمام الملأ من طرف علماء كبار البيوتات مما ينتج عنه استمالة أطياف المجتمع والبيوتات الصغرى في فلكهم.

تم استخدام كبار علماء غرناطة وأعيانها من بيوتات العلم والسياسة والتجارة في السفارات نحو وجهات متباينة (المغرب، إسبانيا، المشرق، الأناضول...)؛ وإن كانت نتيجتها واضحة أحيانا من خلال إطلاق وتبادل الأسرى وعقد اتفاقيات تجارية أو هدنة وشفاعة لعالم ما، إلا أننا لم نستطع الجزم في مصير معظم هذه السفارات بحكم شح المادة الخبرية.

قائمة المراجع:

- ابن الأحمر، إسماعيل، (1968). **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان،** تح: محمد رضوان الداية، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن الحاج النميري،إبراهيم، (1990) . **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب،** تح: محمد بن شقرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي
- ابن الخطيب لسان الدين، محمد (د-ت). **أوصاف الناس في التواريخ والصلات - ويليه الزواجر والعظات،** تح: محمد كمال شبانة، المملكة المغربية ودولة الامارات العربية المتحدة: اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي.
- ابن الخطيب لسان الدين، محمد، (د- ت)**. كناسة الدكان بعد انتقال السكان،** تح: محمد كمال شبانة، القاهرة: دار الكتاب العربي.
- ابن الخطيب لسان الدين، محمد، (1973). **الإحاطة في أخبار غرناطة،** تح: عبد الله عنان، ط2، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن الفضل ش.هاب الدين، (1993). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،** بيروت: دار الجيل.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، (2000). **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،** تح: خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، (1979). **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،** تح: محمد تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

- ابن دحية الكلبي، عمر، (1955). **المطرب من أشعار أهل المغرب،** تح: ابراهيم الابياري وآخرون، بيروت: منشورات دار العلم للجميع.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (1987). **جمهرة اللغة،** تح: منير بعلبكي، ط1، بيروت، دار العلم للملايين.
- ابن رضوان المالقي، أبو القاسم عبد الله، (1984). **الشهب اللامعة في السياسة النافعة،** تحقيق: علي سامي النشار، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة.
- ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي، (1997). **ديوان،** تح: محمد توفيق النيفر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- ابن عسكر المالقي، محمد، (1999). **أعلام مالقة،** تق: عبد الله المرابط الترغي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، دار الأمان للنشر والتوزيع، مطبعة دار صادر.
- أبو حمو موسى الثاني، ابن يوسف الزياني، (2011). **واسطة السلوك في سياسة الملوك،** تق: عبد الرحمن عون، الجزائر: منشورات بونة للبحوث والدراسات.
- بوعمامة، فاطمة، (2011). **اليهود في المغرب الإسلامي ما بين القرنين 7-9 هـ/13-15 م،** الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة.
- جنثاليث بلنسيا، آنخيل، (د-ت). **تاريخ الفكر الأندلسي،** تر: حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- حركات، ابراهيم، (2000). **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ،** ط1، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، (2005). **مختار الصحاح،** تدقيق: عصام فارس الحرستاني، دار عمان.
- الرويفي،محمد،(1965)."معاملة الرسل والسفراء في الإسلام"، **مجلة دعوة الحق،** وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المملكة المغربية:السنة9، عدد2،ص ص45 ،47.
- الساحلي المالقي، محمد أبو عبد الله، (2003). **بغية السالك في أشرف المسالك،** تح: عبد الرحيم العلمي، الرباط: وزارة الأوقاف المغربية.

- سالم عطية، آمال، (2011). **السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم العلوم الإنسانية، جامعة معسكر، الجزائر.
- عنان، محمد، (1997). **دولة الإسلام في الاندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- فرحات، يوسف شكري، (1993). **غرناطة في ظل بني الأحمر**، بيروت: دار الجيل
- كراتشوفسكي يوليانوفيتش، أغناطيوس، (1963). **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر: صلاح الدين عثمان هشام، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- محمد آل مصطفى، إبراهيم، (2013). **سفارات الاندلس إلى ممالك أوربا المسيحية الكاثوليكية (138-422هـ)**، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- المقري التلمساني، أحمد، (1968). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.
- مؤلف مجهول، (1404 هـ). **نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر** (آخر أيام غرناطة)، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشق: دار حسان.
- النباهي المالقي، علي أبو الحسن، (1983). **تاريخ قضاة الأندلس كتاب" المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، ط 5، بيروت: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة.

- Arie, Rachel. (1990). L'Espagne musulmane au temps des nasrides (1232-1492), Paris : ed De Boccard.
- Damaj Ahmad, Garcia lujan José Antonio, (2012). Documentos árabes granadinos del archivo del marqués de Corvera (1399-1495); edición y estudio Fundación Nuestra Señora del Carmen y fundación Portillo, Huéscar.
- Casciaro , Jose maria : (1947), el visirato en el reino nazarí de granada, Madrid: Instituto Nacional de Estudios Jurídicos.
- CASTAÑER, José Enriqué Lopez De Coca, (2004), "El papel de Granada en las relaciones castellano-portuguesas (1369-1492)", Espacio, Tiempo y Forma. Serie III, H. **Medieval**, t. 17., pp 339-351.

- Cheddadi, Abdeslam, (1983), « A propos d'une ambassade de Ibn KHALDUN auprès de Pierre le cruel », **Hesperis tamuda**, vol XX, XXI, Université Mohammed V, Rabat : pp 5-23.
- Delgado, Cristobal torres, (1979), "El mediterráneo Nazari: Diplomacia y piratería. siglos XIII-XV", **CEMCTH**,N°4-5, pp203-210.
- Gaspar Romero, Mariano, (1911), "Documentos Árabes de la corte Nazari de Granada", **Revista de archivos, música y museos**, Madrid.
- Molina, José Rodríguez. (1990), "Reflexiones sobre el reino de Granada", **revista d' historia medieval**, N°10, pp312-330.
- Seco de Lucena Paredes, Luis. (1955), "Viaje a Oriente. Embajadores granadinos en El Cairo", **Miscelánea de estudios árabes y hebraicos**, Sección Árabe-Islam. Vol. 4, p6.
- Torres Fontes, J. (1961)," La embajada de Ali ibn Kumasa en 1382", **Revista murgetana**, N°16, pp25-29.
- Vidal Castro, Francisco, (2004)," El asesinato político en al Ándalus: la muerte violenta del emir en la dinastía nazarí", **revista Al-Andalus**, pp 349-398.
- ferrer Mallol, María teresa y otros (2004), negociar en la edad media, actas de coloquio, 14-16 de octubre, Barcelona: C S I C.
- Salicru i lluch, Roser. (2007), « Les ambassades et la diplomatie comme expression des contacts interculturels entre chrétiens et musulmans en Méditerranée Occidentale pendant le Bas Moyen-âge », **Estudios de historia de España**, IX, pp77-106.